تجديد الخطاب الثّقافيّ وعلاقته بالوطن

الباحث: نائلة يحي إبراهيم [1] *
1مؤسسة باحث دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجنان (لبنان)

Renewing the cultural discourse and its relationship to the nation

Naila yahya Ibrahim [1] *
https://orcid.org/0009-0001-9592-8607
PhD Researcher, Department of Arabic Language and Literature, Al-Jinan University (Lebanon),
Nailaibra@outlook.com

تاريخ الاستلام: 06 / 11 /2024 تاريخ القبول: 01 / 12 / 2024 تاريخ النشر: 10 / 12 / 2024

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع الخطاب الثّقافيّ مبيّناً علاقته بالأرض-الوطن، مسلّطاً الضوء على بعض المرتكزات المهمة التي تربطهما ببعضهما، من حيث التركيب الإنساني وعناصره المشابهة للأرض، ومبرزاً دوره الفاعل في تكوين وإنعاش حضارتنا العربية، وكيفيّة جعله مواكباً للزمن مع الاحتفاظ بملامحه الأصيلة وهويّته ومواجهة عوامل هدمه أو تغييره الجذري والعمل على ترميم ما وُجب ترميمه من ذواتنا القديمة عبر سلوك الطريق السليم لتجديده، إصلاحه وتطوّره، وترسيخ روح المحبة والإخلاص للوطن-الأرض-الطّبيعة، عارضاً بعض الوسائل الأساسيّة الّتي تُعنى بذلك، في ظل تحدّيات العولمة الّتي تودي بالخطاب الثّقافيّ إمّا نحو التطوّر الواعي أو نحو طمس جذوره واندثاره.

كلمات مفتاحية: الثّقافة.، الخطاب الثّقافيّ.، الوطن.، الأرض.

Abstract:

This research deals with the topic of cultural discourse, highlighting its relationship with the land and the homeland, shedding light on some of the important pillars that link them together, in terms of human structure and its elements similar to the land, and highlighting its effective role in the formation and revival of our Arab civilisation, and how to keep it up to date with the times while retaining its original features and identity and confronting the factors that destroy or radically change it and work to restore what must be restored from our old selves by taking the right path to renew, reform and develop it, and instilling the spirit of love and devotion to the homeland - the land - the nature, presenting some of the basic means that deal with this, in light of the challenges of globalisation, which leads the cultural discourse either towards conscious development or towards the obliteration of its roots and its extinction .In light of the challenges of globalisation, which leads cultural discourse either towards conscious development or towards the obliteration of its roots and extinction.

*المؤلف المرسل.
*Corresponding author.

Enter your abstract here (an abstract is a brief, More importantly comprehensive summary of the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, More importantly comprehensive summary of the contents of the article).

Keywords: Cultural; Cultural discourse; the homeland; the land.

مقدمة:

يشكّل الخطاب الثّقافيّ الجانب الأهم في عملية إبراز معالم الثّقافة، مساهماً في تشكيل ذهنية المجتمع وتوجيه تفاعلاته مع سائر المجتمعات، وتنمية وتحضّر أفراده وصوّغ سلوكياتهم، فالخطاب الثّقافيّ بمفهومه الشامل، وبتعدّد أشكاله ولغاته قادر على التأثير والتغيير، وتجاوز العقبات والتصدّي للتحدّيات، وفتح آفاق جديدة من الأمل للجماهير الثَّكلى، لما له من تأثيرٍ قويٍّ على المُتلقّي، ودورٍ فعّالٍ في بلوغ حياة أخلاقيّة وروحيّة وفكريّة مريحة، وتركيب ملامح تاريخ البشرية وحضارتها، وعليه فإنّ وجود الإنسان على وجه الأرض مرهونٌ بالثّقافة التي تشكّل ركيزة الحضارة والهويّة الإنسانية، وتبقى قضية الانتماء والوفاء للوطن-الأرض هي الأكثر أهميّة لدى المربين لبناء جيل مزوّد بالمعرفة الرصينة للحضارة والتاريخ والتراث، وواعٍ للرؤى والتّطلعات التجدّدية نحو المستقبل المزدهر وفق متطلبات العصر الصاخبة والمتسارعة.

الإشكاليّة:

- ما المقصود بالثقافة والخطاب الثقافيّ، وما المقصود بالوطن؟
- ما ثقافة عصرنا الحاليّ تجاه الوطن؟
- ما الروابط الأساسية بين التركيب الإنساني والأرض؟
- كيف نجدّد الخطاب الثقافي في وطننا العربي؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- - بيان معنى مصطلحات: الثقافة، الخطاب الثقافي، الوطن، في لغتنا المعاصرة.
- (بارت، 1999) تبيين الروابط الأساسيّة بين تركيب الإنسان وطبيعته من جهة، والأرض والوطن من جهة ثانية.
- - توضيح أهم خطوات تجديد الخطاب الثقافي في وطننا العربيّ، سعيًا نحو ربط الإنسان بأرضه ووطنه.

أهميّة البحث:

تكمن أهميّة البحث في أنه يتناول موضوعاً بالغ الأهميّة في حياتنا اليوميّة، وهو الخطاب الثّقافيّ وصلته الوطيدة ببناء الفرد والمجتمع، وتحديد هويّته، وعرض محطّات تجديد الخطاب الثّقافيّ بطريقة سليمة من دون اختراق نسيج التراث والتاريخ، أو التأثير على أصالتهما، حيث يبيّن هذا الخطاب صلة الإنسان بالأرض، إذ للخطاب الثقافي دوره في تعزيز مشاعر الانتماء، كما يبيّن هذا البحث وطرق توجيه هذا الخطاب نحو طريق مفيد ومُثمر.

منهجيّة البحث:

لتحقيق أهداف هذه الدراسة اتّبعت الباحثة المنهج الوصفيّ التحليليّ، إذ تحاول الباحثة أن تشرح وتبيّن المفاهيم الأساسية للبحث، بالإضافة إلى بيان الواقع الحاليّ للثقافة كما هو، من غير إضافة أو تغيير في هذا الواقع، إذ المراد وصفه وصفًا دقيقًا موضوعيًّا، ومن ثَمَّ تنتقل الباحثة إلى استكشاف أهم الروابط بين الإنسان والكيان الإنسانيّ، والعناصر الأرضيّة التي ينتمي إليها هذا الإنسان، لتستطيع بعد تحليل أهمّ المركّبات والعناصر الإنسانيّة والأرضيّة؛ أن تبيّن طرق تجديد الخطاب الثقافيّ، وذلك في خدمة ارتباط هذا الإنسان بأرضه ووطنه، مهما كان دينه أو انتماؤه أو ثقافته.

خطّة البحث:

تتألّف خطة البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، وقد جاءت وفق الشكل الآتي:

- المقدمة وتتضمن:
  - إشكالية البحث
  - أهداف البحث
  - أهميّة البحث
  - منهجية البحث
  - خطّة البحث
- المبحث الأول: المفاهيم العامّة، ويتضمن:
  - مفهوم الخطاب لغة واصطلاحًا.
  - مفهوم الثّقافة لغة واصطلاحًا.
  - مفهوم الخطاب الثّقافيّ.
  - الوطن لغة واصطلاحاً.
- المبحث الثاني: تجديد الخطاب الثقافي في ظلّ الثقافة السّائدة، ويتضمن:
  - ثقافة عصرنا الحالي.
  - الروابط بين التركيب الإنساني وكيان الأرض.
  - محطّات الطريق السّليم لتجديد الخطاب الثّقافيّ الوطنيّ العربيّ.
- -الخاتمة وفيها النتائج.
- قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول
المفاهيم العامّة

مفهوم الخطاب لغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "(خطب) الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابا.. والخطبة: الكلام المخطوب به" (فارس، 1979).

وجاء في لسان العرب: "خطب: الخطب: الشأن أو الأمر، صغر أو عظم.. والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان" (منظور، 1994).

يلاحَظ أن المعنى اللغوي يدور حول الكلام، فالخطاب هو الكلام الذي يؤدّيه شخص إلى آخر، أو الكلام المتبادل بين شخصين.

مفهوم الخطاب اصطلاحًا:

"يُعد مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم المتّسعة، إذ تعددت التّعريفات المتعلقة به" (البازعي، 2000)، نظراً لتنوّع المشارب الفكرية واللغوية والفلسفية والاجتماعية الّتي تطرقت إليه في سياقه الغربي خاصة (العبد، 2005). وفي سياق التّفكير العربي، ولا سيما اللغويّ منه، نجد تعريفات كثيرة، فمن المفكرين والنّقاد اللغويين من انطلق انطلاقاً بنيوياً، إذ رأى الخطاب جملة واحدة تجمع بين أعضائه علاقات احالية، وتتّسم هذه الجملة بالاكتفاء الذاتي، إذ لا تحتاج إلى العوامل الخارجية، وهي بذلك بنية مغلقة (بارت، 1999). "لذلك يرى بعض النُقاد أن الخطاب ليس وعياً يتخذ من اللغة مظهره الخارجي، وليس لساناً وذاتاً تتطلمه، وإنما هو ممارسة، لها لأشكالها الخاصة من الانتظام" (العالي، 1996).

مفهوم الثّقافة لغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "(ثقف) الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء، وثقفت هذا الكلام من فلان. ورجل ثقف لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه" (فارس، 1979).

وجاء في لسان العرب: "ثقف: ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه. ورجل ثقف: حاذقٌ فَهِمٌ، ورجل ثقف لقف إذا كان ضابطا لما يحويه قائماً به، وثقُف الرجل ثقافة أي صار حاذقا خفيفا، ومنه المثاقفة. وثقِف أيضا ثقَفا مثل تعب تعبا أي صار حاذقا فطنا" (منظور، 1994).

يلاحظ أن معنى الثقافة لغة يشير إلى عدة أشياء، منها العلم والفهم، ومنها إدراك أو الحصول على الشيء، ومنها الذكاء والضبط. ولا شكَّ أن المعنى المتداول اليوم قريب من ذلك، إذ يُشير إلى معلومات متنوعة ومختلفة في مجالات متعدّدة، إلا أنّ استخدام الفعل: ثقف، بمعنى إدراك الشيء والحصول عليه، لم يعد مستخدمًا كما كان الأمر سابقًا.

مفهوم الثقافة اصطلاحًا:

"ثمّة تعريفات متعددة للثقافة تتمحور حول ماهية الثّقافة بوصفها طريقة حياة كُليّة" (فوزي، 2008).

وثمّة من يرى أنّ الثّقافة: "مجموعة من الصّفات الخُلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثّر في الفرد منذ ولادته، وتُصبح لاشعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة، في الوسط الذي وُلد فيه" (بن نبي، 1979).

والثقافة: "هي المعرفة التي تؤخذ عن طريق الأخبار والتلقي والاستنباط، كالتاريخ واللغة والفقه والأدب، والتفسير والفلسفة والحديث، حيث التاريخ هو التفسير الواقعي للحياة، والأدب هو التصوير الشعوري للحياة، والفلسفة هي الفكر الأساسي الذي تبنى عليه وجهة النظر في الحياة، والتشريع هو المعالجات العلمية لمشاكل الحياة، والأداة التي يقوم عليها تنظيم علاقات الأفراد والجماعات" (القيسي، 2019).

"والفنون كالقصور والنحت والموسيقى من الثقافة لأنها تتبع وجهة نظر معيّنة" (بن نبي، 1979).

وقيل في الثقافة" "كلُّ ما يضيء العقل، ويهذّب الذوق، وينمّي موهبة النقد، وباشتقاق كلمة ثقافة من الثِّقاف يكون معناها الاطلاع الواسع في مختلف فروع المعرفة، والشخص ذو الاطلاع الواسع يُعرَّف على أنّه شخصٌ مثقّف، وتُعرّف الثقافة أيضًا -اصطلاحاً- على أنّها نظام يتكوّن من مجموعة من المعتقدات، والإجراءات، والمعارف، والسلوكيّات التي يتمّ تكوينها ومشاركتها ضمن فئةٍ معيّنة، والثقافة التي يكوّنها أي شخص يكون لها تأثير قويّ على سلوكه" (التويم، 2024).

ومن تعريفات الثقافة أنها: "الأفكار الإنسانيّة والعادات والتقاليد والنُّظم والقيم الاجتماعيّة لتحقيق الحاجات الأساسيّة، والضروريّة داخل المجتمع ويفرض عليه نظام معين" (التويم، 2024).

الخطاب الثّقافيّ:

بناءً على ما سبق من تعريف لمفهوميّ الخطاب والثّقافة؛ نستطيع القول: إن الخطاب الثّقافيّ هو شكل لغوي وأداة لتحقيق التّواصل والاتّصال، ووسيلة التّعبير والتّفاهم عن كل الممارسات التي تُعنى بالثّقافة، وبما أنّ اللغة هي المظهر الملموس للخطاب، نستطيع تعريف الخطاب الثّقافيّ كما ذكر "طعيمة" في تعريفه للغة: "لا ينظر إليّها على أنّها أداة تخاطب فحسب، وإنّما يُنظر إليها على أنها الوعاء الثّقافيّ في المجتمع، او المخزون الثّقافيّ الذي يشتمل على الآداب والفنون والأخلاق والمسارات والأحلام والآمال والمثل العليا، إنها الرباط الذي يربط الأحياء ببعضهم البعض والرابط الذي يربط السلف بالخلف" (طعيمة، 1998).

مفهوم الوطن لغةً:

جاء في لسان العرب "وطن: الوطن: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، وأوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها أي اتخذتها وطنا، وكذلك الاتطان، وأما المواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له" (منظور، 1994).

وجاء في معجم مقاييس اللغة: "(وطن) الواو والطاء والنون: كلمة صحيحة. فالوطن: محل الإنسان. وأوطان الغنم: مرابضها. وأوطنت الأرض: اتخذتها وطنا" (فارس، 1979).

يتّضح من التعريف اللغويّ أنّه قريب من المعنى المتداول، وهو أنّ الوطن هو المكان الذي يقيم فيه الإنسان، إلّا أنّه يختلف عن المعنى المتداول في عصرنا أنّ الوطن لا يُطلق على مكان الإقامة إلا بشرط الانتماء السّابق، وهو كون الإنسان يرجِعُ إلى هذا المكان في تاريخه وثقافته ونسب عائلته القريب أو البعيد.

تعريف الوطن اصطلاحاً:

"الوطن هو حصة المشتركين جميعاً في الانتماء إلى أرض محددة، ويتشكّل في ضوء المفاهيم الجغرافية. والتّاريخية، والسّياسيّة، والوطن -في هذا البعد- هو ما يحدد جنسية الفرد، ويمكن أن نُطلق عليه: (الوطن العام)، أمّا الآخر، فغايته الخصوصيّة، إذ تحدده العلاقة الوجدانيّة الحميمة بين الإنسان، وما تنتمي إليه ذاته، وأمّا تجده الذات ملاذاً من الوطن العام، وهذا هو الوطن الخاص، أو ننعته: بـ(الوطن الذات)" (المسعودي، 2011).

"والوطن بالمعنى العام هو منزل الإقامة، والوطن الأصلي هو المكان الذي ولد فيه الإنسان أو نشأ فيه" (صليبا، 1982).

وتعبير الوطن قد يختلف باختلاف المراد به، فقد يراد قطعة من الأرض كالقرية أو المدينة التي نشأ بها الإنسان، وهذا مفهوم اجتماعيّ، وهناك مفهوم إداريّ يراد به ما يشمل مجموعة من المدن أ\ والقرى التي تنتمي إلى إقليم الدولة، وهناك

مفهوم سياسيّ يراد به الدولة ذاتها، وهناك الوطن القوميّ والتي ترتبط به أمّة واحدة يجمعها عدد من الروابط (الزعبي، 2009).

المبحث الثاني

تجديد الخطاب الثقافي في ظلّ الثقافة السّائدة

ثقافة عصرنا الحالي:

نقف اليوم في حاضر زئبقي مترجرج، يسعى بعضنا إلى نبش قديم الخوابي، وفتح الكتب الخوالي، ليستزيد من كنوز الأرض بما كان، ويدّخرها زاداً ثميناً في رحلة ما سيكون، ويسعى البعض الآخر إلى طمس مواسم الزمان المنصرم، فيدفع باهتمامه إلى الأمام مجاراة لعصر العولمة، وبين هذا وذاك، تقف فئة تحاول أن تقيم التوازن بين الأمس واليوم، لتُنشِئَ للغد صروحاً سليمة البنيان، لا يُشظّيها التجاذب المتعارض القائم في أساسها.

هذه أيها السادة، خلاصة ثقافة عصرنا، ونحن في حيرة من أمرنا، نلتفت مرّة إلى الوراء، ويجذبنا الأمام مرّات، فنقف في ساحة الصراع متململين كشجرة يلفحها الشرقيّ مرة والغربيّ مرة أخرى، فتظلّ أغصانها في ارتعاش.

عندما نتحدث عن الثّقافة، ولا سيّما في هذا الشرق العربي الضارب في جذور التاريخ، وفي امتداد الجغرافيا، وبينهما حضارات تتراكم، وثقافات تتعدّد، بالكاد يستطيع وعي التاريخ حصرها؛ إنما نتحدث عن ثقافات تبدأ من بلاد النيل إلى بلاد ما بين النهرين، وتمر بفينيقيا موانئَ وجبالاً، حضارة وحرفاً، معرّجة على فلسطين وشبه الجزيرة لتحط رحالها عند مثلث الكتب المقدسة.

وهنا لا بدّ من طرح سؤال هو في أساس التكوين الحضاري للشعوب، ونركّز في الإجابة عنه، على ما يعنينا في أوطاننا العربية:

ما الثّقافة، وما منابعها؟ وكيف نستطيع أن نجعلها تواكب الزمان وتنبض بنبض الحياة الّتي تتجدّد تجدداً لحظوياً؟ إذ واجب الثّقافة أن تواكبها.

الإشكالية تكمن في ما يشبه انطلاق بين قطار الثّقافة الحديث المتسارع، وهو ينهب الزمن نهباً، وبين القطار القديم الذي أوقفناه عند محطات من التاريخ ونسيناه هناك، فما العمل؟

نحن نرغب في الحديث عن الخطاب الثّقافيّ المتّصل بالأرض، وبالوطن حتماً وفي إبراز دوره الفاعل في ظلّ التّخبط الّذي أشرنا إليه.

ما علاقة الثّقافة بالأرض؟ وهل يكفي أن نخاطبها بعشوائية وسطحية لنقود الأجيال إلى بيت طاعتها قسراً، وبعيداً عن الحبّ والحنين؟ وبالتّالي، ما هي الصِّلات بين كيان الإنسان، وكيان الأرض؟ وهل التّخلف عن مواكبة روح الأرض، وعن الإصغاء إلى صمتها هما اللّذان جعلا بقاع أوطاننا تهتز وتزلزل بين الحين والحين، كما نشهد اليوم؟

ترى الباحثة أنّنا في هذه الفوضى الثقافيّة العارمة التي تجتاح هذه الأمة العربيّة، وفي هذا التناقض الصّارخ الذي يعيشه أفراد الأمّة، لا بدّ لنا من التفكيرِ بجدّية في تحديد هوية الأمة، أو السّعي في جعلها أمّة لها هويّة واضحة متباينة متمايزة عن غيرها من الأمم، وذلك حتى لا نصبح مسلوبين من أي ثقافة أو تراث أو حضارة قديمة أو حديثة يمكن أن ننتسب إليها وتنتسب إلينا، كما ترى الباحثة أنّه ليس من السهل أبداً أن نحدّد الآن طبيعة الثقافة السائدة في مجتمعاتنا، وليس من السهل ضبطها ضمن بوتقة واحدة، لذلك لا بدّ لكل خطاب تجديديّ من أن يراعي هذه الحالة التي تعيشها الأمة، ولا بدّ من مراعاة اختلاف الأفهام والانتماءات والتيارات الفكرية والثقافيّة المتناحرة أحيانًا داخل الأمة الواحدة، وليست المراعاة هاهنا هي موافقة كل طرف فيما يذهب إليه في فكره مهما كان متجّهًا جهة اليمين أو جهة الشّمال، بل المطلوب في هذه

المرحلة أن يتمّ الرّجوع إلى المبادئ العامّة الإنسانيّة التي تنطلق منها الثقافات الإنسانيّة وتعترف بها، ومن أهمّها في هذا الزمان: احترام الكيان الإنسانيّ، وتقديره، واعتبار حريّته في الرأي والتعبير أمرًا لا يمكن تجاوزه، وذلك كي نستطيع في خطابنا الثقافيّ أن نتّفق على نقاط نبدأ منها، لنصل إلى رفع الوعي الاجتماعي والثقافي لدى أبناء هذه الأمة، الذين هم مكوّنها الأول والأساس.

الروابط بين التركيب الإنساني وكيان الأرض:

ليست أهمية الأرض في كونها موطئ أقدامنا، ومسرح نشاطاتنا في رحلة العمر فحسب، بل هي تتّخذ أبعاداً أخرى أكثر أهميّة، تتّصل بتكوين الإنسان الفرد، وبنشأة الجماعة، وتشكيل الوطن، هذه الثلاثة لا تنازُلَ عنها، ولا تتّصل بقديم أو حديث؛ إنّما هي زاد كلِّ زمانٍ من المبتدأ إلى المنتهى.

لذلك، فالخطاب الثّقافيّ يتجدّد من تلقاء نفسه إذا أحسنّا الاعتناء بتربية الفرد جسداً ونفساً وفكراً، وتدريب الجماعة على التّمرس بالقيم، وتأطير الوطن ربطاً بالأرض بمعانيها التّرابية، والقيمية والحضارية.

نقطة الانطلاق في المسألة هي نقطة الدائرة، ومحور كلّ شيء، إنها ثنائية التركيب الإنسانيّ -فهو تراب وروح- كأنّ الإنسان تراب يمشي، والأرض كيان يغفو، فالجسد-التراب منزل الروح، تُعرّش فيه فتبنيه عروقاً وأعصاباً، وبنسمتها تُنمّيه.

فلو نظرنا للإنسان، لوجدنا العناصر الأربعة تحيا فيه وتُحييه بمقاييس ومقادير، فإن أتمّت وظائفها باتّزانٍ عاشَ واستمرّ، وإن اختلّ عملها أو عمل أحدها تعرّض للخطر حتّى الموت، أوَ ليست الأرض في الجوهر تشهد التركيب عينه، بين نسائم تجول، وتراب يصمت تنتظر أرحامه الماء لتُثمر؟ أليست المجاري فيها شرايين تروي جسدها، وتتماسك بأواصر متينة؟ في حين أنّ الصخور هيكلها العظمي الصّلب (Richarded، 1959).

إذا أدركنا هذه الحقيقة، وعَينا جملة الروابط الّتي لا تنفصم عراها بين الإنسان والأرض. ومهما سعينا إلى تجديد الثّقافة لا نستطيع إلغاء ما هو أصلٌ فينا، مُساهِمٌ في تكويننا، وقد تكون المسألة الأهم في هذه الصلة فكرة الأمومة، إنّ هذه الصورة تتوحّد بين أحشاء الأم الحقيقيّة والأم الكُبرى الطّبيعية (Bachelard، 1948)، وقد جاء عند "Albert Beguin" ما معناه: "التُّراب إطار إنساني، تتم فيه تحركات هذا الإنسان... وهو منطلق الحياة ومحتواها، والأرض، في براءتها، تستمرّ لتشكِّلَ في ذهنه، تلك البقعة الفطرية الّتي جُبل فيها ومنها، وعليها رأى الحياة، فلا يفتأ يحنّ إلى أحضانها حنينه إلى أحضان الأمّ، أمٌّ يحلم أبداً بالعودة إليها والارتماء على صدرها (Beguin، 1946).

تجديد الخطاب الثّقافيّ:

الإنسان أصلاً يحتفظ في أعماق ذاته برواسب تردّه إلى أصول المادة قبل أن ترقى إلى أشكال ومظاهر معبّرة، وعليه؛ إذا اتّجهنا ناحية خطاب ثقافي جديد، هل نستطيع إلغاء "الأرض-الجسد" أو "الأرض- الوطن" الذي هو جسدنا الأكبر!

لذلك فإنّ تجديد الخطاب هذا يبدأ بتجديد ذواتنا، والدّفع بها إلى مواكبة الحياة، والتجديد لا يكون إلاّ بشيء من الماضي، وشيء من الحاضر، يلتقيان معاً، ويسيران جنباً إلى جنب لصناعة المستقبل.

فما هو الماضي في حقيقته؟ إنّه متعدّد متشابك، أكثره يلوح لنا كما تلوح الأشياء في المرآة الخلفية للسائق، والمرآة هي الذّاكرة، والأشياء هي بقايا عشناه في طفولتنا، تتتالى المشاهد الّتي نتلقاها صغاراً وقد علقت في وجداننا كأنّها بعضٌ من الحب الّذي لا يُنسى.

إذاً، اتّصالنا الحميم بالأرض، بل بالطّبيعة؛ هو تجديد بحد ذاته، لأنّ العودة إلى الفطرة والذّات، وإعادة الاعتبار إلى العفوية والحرية، هي تجاوز للتّقاليد بصيغتها الاجتماعية (سعيد، 1979)، لذلك فغنى الطبيعة يُغني الذّات ويُجدّدها، وليس

تعدّد صور الطبيعة إلاّ تجسيداً لمشاعرها التي تنعكس على الإنسان (Louis، 1977) . وما مشاهدها إلاّ تصويرٌ للحالات النفسيّة (Beguin، 1946) .

وفي هذا السياق نظر كل من أرسطو وتوما الأكويني إلى الوجود من خلال تأثرهما بالطبيعة، ليكتشفا من خلالها الوجودَ الإلهيّ (خوري، 1960). من هذا القبيل تُعتبر الطبيعة امتداداً إنسانيّاً لا تبلو جدّته، وكما أنّ هناك عمراناً في المدينة فثمّة عمران في الريف أرسخ عهداً، وأضمن استقراراً (سعادة، 2002)، ومن المؤكَّد أنّ بصمات الطبيعة تظلّ عالقة في وجداننا، وتظلّ ثقافتها النقية الخالية من الشوائب طاغية، فنحملها مدى العمر، كما تحمل الناقة الماء في أحشائها، فتستقي منه في رحلتها الصّحراوية. ومَن يحسب أنّ بإمكانه تخطّي ما رُسم فيه من صور منذ زمن الطفولة فهو مُخطِئ، إنّ الذّات البشرية تتطوّر وتتحوّل، ولكنها لا تنقلب ذاتُها، لأنّها عندئذٍ تُصبح غيرَها، تفقد هويّتَها، فماضينا يحيا فينا، ويدفع بنا من وراء بأيدٍ خفيّةٍ حيناً، ظاهرةٍ حيناً آخر، ليُحرّك عجلة حاضرنا باتّجاه الغد.

وثقافة الأرض تمتد فينا، يشدّها قطبان: أحدهما فردي بالتّشكل منذ لحظات الحياة الأولى، حيث تشرع آلة التصوير الطّفولية فتقتبس كل ما ترى ، تلتقط عدستها على غير قصد منها، تتراكم الصور في أحشائها... وبعد زمن يصبح ما فيها جزءاً لا يتجزأ منها فتفيض وجدانيّاً بما اختزنت... ويستمتع الإنسان باستعادتها وتقليب وجوهها، وفي هذا نؤكِّد أنْ لا ماضيَ بلا مكان، ومن هنا ينشأ الحنين، فتُصبح ذاتنا المتحركة مع الزمان تحِنُّ إلى ذاتنا المزروعة في أرض، في بقعة، في أيّ مكان.

هذه هي ملامح ثقافتنا الأصيلة، إنّها القديم القابل للتجديد والترميم والتنقيح، لذلك، إذا رغبنا في تعديل الخطاب الثّقافيّ، علينا أن ننطلق من الماضي، وفيه ربط بين جسدنا الترابي النامي بالروح، وبين أمّه الأرض، فنسعى بوساطة علماء التربية والنفس والاجتماع إلى تشذيب الأغصان اليباس، أو الفروع المضرة من ذاتنا التاريخية ونُبقي على الصور-النقاء، والّتي تجعل الطبيعة-الأرض مرآة لها، في علاقة جدلية لا مفر منها، لذلك أرى أنّ محبة ذاتنا القديمة بكلّيتها إذا هدبناها، ضربٌ من ضروب تجديد الخطاب الثّقافيّ؛ لأنّ فيها طفولتنا وبراءتنا وارتباطنا بالمكان، أليس المكان الثابت ذاكرة الزمان العابر؟ ونحن نعلم أنّ علم النفس، وبالأخص ما جاء عند فرويد، يُثبت باستمرارٍ الطّفولةَ فينا، والّتي تظلّ آمرة لوجداننا مدى الحياة، كما يُثبت علاقة لا تنفصم عُراها بين ذاتنا والأشياء، من طريق الأحلام والرُؤى.

هذا الربط عبّر عنه كل من Gilbert Durand و Gaston Bachlard و Young في جملة دراستهم.

محطّات الطريق السليم لتجديد الخطاب الثّقافيّ الوطني العربي:

أمّا الطريق السليم لتجديد الخطاب الثّقافيّ فله محطّات، منها: المنزل، المدرسة، المؤسّسات الأهلية والاجتماعية، والدّولة بجميع مؤسّساتها، يُضاف إليها المكتسبات الثّقافيّة، وفوقها جميعاً وسائل الإعلام الّتي تطبخ الأحداث وتوجهها كما تشاء، جميعها بين الإيجاب والسلب إمّا تصنع أجيالاً وأوطاناً أو تخرّب الأمم.

أمّا القطب الثاني فهو اجتماعيّ، يتّصل بالوطن ككل وبالأرض.

بدايةً؛ لا وطن بلا أرض، والصراعات بين الأمم تتّخذ الأرض مُنطَلقاً، هي مصدر الخلاف ومرجعه، والأرض تصنع الوطن أو تلغيه، فهل من وطن في فضاء أو خواء؟

صحيحٌ أنّ الحضارة والتراث والثّقافة والإنسان جميعها تشكّل روح الوطن... ولكنّها لا تكون إلاّ على أرض، والشعوب المقتلَعة من أوطانها إنّما هي كجماعات النحل أضاعت قفرانها فتشتّت، ولنا من فلسطين وسوريا والعراق ولبنان وغيرها خير دليل، والشّعب -أيُّ شعب- إن فقد أرضه أضاع تُراثه وحضارته، وتشوّش تاريخه، وتفكّكت وشائج مجتمعه (مجتمع المهجرين)، فيستمرُّ يُناضل لاستعادة أرضه، مقدماً الشهداء والغالي والنفيس من أجلها. وفي استعادتها إعادةُ تكوين ما كان،

وربط الزمان بالمكان، فالخروج من الأرض والوطن غربة، والغربة تولّد الحنين، والحنين يولّد الرّغبة في السفر، والسفر يُفضي الانتقال عبر الأحلام والرؤى أو عبر الواقع بالنضال والمقاومة.

إنّ معاناة الشعوب العربية اليوم في الأوطان الّتي ذُكرت وفي سواها، تتأتّى بمعظمها أو في قسم منها، من إهمالنا للأرض، والاستخفاف بقيمتها، والتّعاطي معها بسطحية وبساطة، لأنّ الإنسان عزَلَها عن بُعدها الحضاري والاجتماعي والتاريخي، فالأرض التراب المعزولة هي كالجسد الميت لا روح فيه، أو كالجدول جفّ معينه، ورغب عن وظيفته.

وهنا أطرح مثالاً عن مسألة الإخلاص للوطن بين الجماعات، هل تعلمون يا سادة أنّ أقلّ نسبة في خيانة الوطن تكون بين الفلاحين والمزارعين، لماذا؟ لأنّ هؤلاء ملتصقون بالأرض أصدقاء لها، هل وجدتم صديقاً يحبّ بصدقٍ ويخون صديقه؟ كذلك الفلاح يحبّ، إذن لا يخون، يرضى بالفقر والعوز ولكنّه يعتبر أنّ بيع أيِّ شبر من الأرض هو انتقاص من كرامته.

إنّ أُولى علامات ترسيخ الإنسان بالوطن تأتي من التربية الّتي تصنع الغد... فلماذا لا نخصص في برامجنا التربوية قسطاً من الوقت نوجّه فيه أطفالنا وشبابنا إلى مصادقة الأرض، والعمل بالتّراب زراعة وقطافاً، والتّمرس بأشياء الفلاحة؟ رائحة التراب تُبرعم الأرض جديداً في وجدان الإنسان، شبابنا يأنفون الاقتراب منها، ويبتعدون عن روحها، كأنّ العمل فيها عار، وهذا ما يفسّره ترك الأرياف في بعض بلداتنا، ومن بعض أسبابه إهمال الدولة لسكان القرى، والبُنى التحتيّة فيها، مع انها معجن المدن ومورد حياتها، الريف نبع المدينة كما يقول الكاتب اللبنانيّ أمين نخلة...

وفي مقاربة عملية لدراستنا وربطها بالوسائل التّنفيذية الممكنة، نؤكد على ما يأتي:

1- لا مجال للفصل بين الحضارة والتراث وبين الواقع، فهما متكاملان.
2- يستحيل فصل الإنسان كفرد أو جماعة في وطن ما، عن الأرض.
3- من العسير جداً الوقوف بوجه العولمة وكسر أجنحتها المحلّقة بجموح في أقطار العالم.
4- يمكن أخذ المُفيد من القديم وانتقاء المُفيد الطارئ، وتشكيل حالة جديدة مُخضرمة نستطيع فيها أن نُجاري العصر دون إلغاء الذّات.
5- لا يصلُح الخطاب الثّقافيّ إذا خرج عن حدود الوطن، إذا أنكرنا تاريخه وتراثه وحضارته.
6- يجب توجيه هذا الخطاب نحو طريق مفيد ومُثمر وذلك يكون من خلال:

أ- التربية والنظر بالمناهج التربوية وإعادة تكوينها وإصلاحها، لتأخذ من القديم كلّ القيم ذات الطابع الإنساني العام، ولا تنفر من العلوم العالمية الشائعة والمتجددة.
ب- لا نسجن الناشئة في حالة ذهنية سلفية مرضية، تُناقض الحياة بتطورها ومسيرتها إلى الأمام.
ج- تعويد الأجيال على حب الأرض والعمل فيها واحترامها أسوة بالدّول الراقية الّتي تُربي الناشئة إذ تدفعها إلى الأرض للمشاركة بالزرع والقطف والتّمرس بالأعمال الفلاحية.
د- إقامة المخيّمات الريفيّة ومعرفة طرق استثمارها تربويّاً ووطنيّاً.
هـ- رفع كتاب -توصية- إلى جامعة الدول العربية للتنسيق بين الدول الأعضاء حول نقاط تربوية محددة، ممكنة التّنفيذ، من شأنها ربط الإنسان بالأرض (أصدقاء الأرض).

و- تبادل خطاب ثقافي جديد من ركائزه: وقف عاصفة التطرّف، قبول الآخر، حماية الأقليات، وذلك لتثبيت الإنسان في أرضه، فيُمارس عاداته وتقاليده ويُحافظ على حضارته، ففي حماية الحضارات والحريّات ينتصر العرب، ويُحقق الإسلام أهدافه السامية، ويُثبت أنّه دين حضاري يعترف بالآخر ويحترم خصوصيّاته.

فلنبدأ بالتربية كي نستطيع بعد عقدين على الأقل أن نُنشئ أجيالاً تحترم الإنسان وتحترم الأوطان، وتصون الأرض، وشرف الوطن والإنسان معاً.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث، تشيد الباحثة بالقارئ العربيّ أن يتوسّع في الجانب ذاته الذي قام عليه هذا البحث، لا لأنّها قد بحثت فيه وشاركت فحسب، بل لأنّ الحاجة إلى معرفة ثقافة الأمة، وطرق تجديد ثقافتها، والخطابات الثقافية المؤثرة إيجابيًّا في هذه الأمة، هي حاجّة ماسّة لكلّ فرد من هذه الأمة بما أنّه ينتمي إليها بصدق، ويرجو الخير لكافة أفرادها، ولا شكّ أنّ القلم لن يحيط بهذه المسألة في بحثٍ صغير الحجم كهذا الذي كتبتْه الباحثة، فكيف والإنسان لا يأمن على نفسه السقط أو السهو؟ إنّه لا بد من معرفة الخطوات الفعلية لتجديد الخطاب الثقافي الفعال، ولربط الإنسان بوطنه وأرضه وهويّته وانتمائه، وذلك تعزيزًا لتشابك الأمة وترابطها وتمسُّكها بحضارتها، وقوفًا في وجه كل غزو فكريّ او حضاريّ يحاول اجتثاث الأمة من جذورها، وصهرها في المكوّن الغربيّ.

أما أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث فكانت كالآتي:

- علاقة الإنسان بالأرض، في الأساس هي علاقة تكوينيّة بنفس العناصر والخصائص.
- ملامح ثقافتنا العربية الأصيلة هي نتاج توليفة سليمة بين الماضي الأصيل وتنقيحه لمجاراة الحداثة المتسارعة.
- إنّ الإتّصال الحميم بالأرض هو تجديد بحد ذاته، ففيه العودة للفطرة وانفتاح على رؤية جديدة.
- تجديد الخطاب الثّقافيّ بطريقة سليمة له محطّات عدّة تربويّة، واجتماعيّة...
- من المهم ربط محطّات تجديد الخطاب الثّقافيّ بوسائل تنفيذيّة مدروسة توّجهه نحو طريق مثمر.

كما توصي الباحثة الكتّابَ والنقّاد بالكتابة في هذا الموضوع وفيما يتّصل به، وذلك لرفع المستوى الثقافي للجيل الصاعد، ولتجديد الخطاب الثقافي، ولربط الأمة بتراثها، ولصدّ الهجمات الداخلية والخارجية والتي تُفقِد أو تسعى إلى فقد الأمة لهويتها، كما أنّ الباحثة لا تنسى في الختام أن توصي بالنّقد البنّاء للمظاهر والتقاليد والعادات الخاطئة التي تدمّر الأمة والمجتمع، وذلك لكي نرقى بأبناء مجتمعنا، ونتخلص من كل مرضٍ يمكن أن ينهش في جسد الأمة الواحدة.

المصادروالمراجع:

- Bachelard, G. (1948). *La terre et les reveries.* Paris: du repos corti.
- Beguin, A. (1946). *L `ame et le reve romantique.* Paris: corti.
- Louis, J. (1977). *le moigne theorie du systeme general.* Paris: presses universitaires.
- Richarded, J. P. (1959). *Poesie et Profondeur.* Paris: du seuil.

- البازعي, م. ا .(2000). *دليل الناقد العربي*. الدار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربي.
- التويم, ن .(10 11, 2024). *الثقافة*. Retrieved from مسك: MISK
- https://hub.misk.org.sa/ar/insights/community/2022/culture/?allowview=true
- الزعبي, آ. ع .(2009). التربية الوطنية في الإسلام دراسة تحليلية. عمّان: دار المأمون للطباعة والنشر.
- العالي, ع. ا .(1996). بين بين .(1 ed.)الدار البيضاء: دار توبقال.
- العبد, م .(2005). النص والخطاب والاتصال .(1 ed.)القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
- القيسي, ع. ا .(2019). العربية لغة وثقافة. بيروت: دار الكتب العلمية.
- المسعودي, ك. م .(2011). الوطن في شعر السياب الدّلالة والبناء. دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.
- بارت, ر .(1999). التحليل البنيوي للسرد) .ح. ب. مقلد (.Trans, المغرب: اتحاد كتاب المغرب.
- بن نبي, م. ب .(1979). مشكلة الثقافة .(4 ed.)دمشق: دار الفكر.
- خوري, أ .(1960). لكلمة العربية في المهجر. بيروت: دار الريحاني للطباعة والنشر.
- سعادة, د. ج .(2002). الصراع بين الريف والمدينة في شعر إيليا أبي ماضي. بيروت: دار الحداثة.
- سعيد, خ .(1979). حركية الإبداع. بيروت: دار العودة.
- صليبا, ج .(1982). جميل صليبا. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- طعيمة, ر. أ .(1998). الثّقافة العربية الاسلامية بين التأليف والتدريس. القاهرة: دار الفكر العربي.
- فارس, ا .(1979). مقاييس اللغة. بيروت: دار الفكر.
- فوزي, ف. ا .(2008). الثقافة والحضارة: مقارنة بين الفكر الغربي والإسلامي. دمشق: دار الفكر.
- منظور, ا .(1994). لسان العرب .(3 ed.)بيروت: دار صادر.

الهوامش:

1- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد العربي، الدار البيضاء، المركز الثّقافيّ العربي، 2000م، ص89.

2- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، ، 2005م، ص7.

3- رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، ترجمة: حسن بحراوي وبشير القمري وعبد الحميد مقلد، المغرب، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1999م، ص9.

4- عبد السلام بن عبد العالي، بين بين، الدار البيضاء، دار توبقال، ط1، 1996، ص78.

5- فؤاد السّعيد وخليل فوزي، الثّقافة والحضارة : مقارنة بين الفكرين الغربي والإسلامي، سوريا، دار الفكر، 2008.

6- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، سوريا، دار الفكر، ط4، ص74.

7- رشدي أحمد طعيمة، الثّقافة العربية الاسلامية بين التأليف والتدريس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص41.

8- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج12، ص451.

9- كريم مهدي المسعودي، الوطن في شعر السياب الدّلالة والبناء، دار صفحات للدراسات والنّشر، دمشق، 2011م، ص22.

Jean Pierre Richard، Poesie et Profondeur، ed. du seuil، Paris1959، 10-38p

Gaston Bachelard-11، La terre et les reveries du repos corti، Paris1948، 80p

Albert Beguin-12، L`ame et le reve romantique، Paris، corti1946، 17p

13-خالدة سعيد، حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، 1979، ص32.

Jean Louis-14، le moigne theorie du systeme general، presses universitaires، Paris1977، 176p

Albert Beguin-15، l`ame et le reve romantique، 25p

16-ألفريد خوري، الكلمة العربية في المهجر، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت 1960، ص307.

17-د. جورج شكيب سعادة، الصراع بين الريف والمدينة في شعر إيليا أبي ماضي، بيروت، 2002، ص 232.